علم الجينوم والفقه الافتراضي

(إشكالات التخيل والتنبؤ والمآلات)

أ.د. مصطفى عطية جمعة

أوراق نماء

فكريـــة

2 يونيه 2024

جميع الحقوق محفوظة 2024

بسم الله الرحمن الرحيم

علم الجينوم والفقه الافتراضي

(إشكالات التخيل والتنبؤ والمآلات)

أ.د. مصطفى عطية جمعة

مصري مقيم في الكويت

ملخص الدراسة

الهدف من هذه الدراسة السعي إلى فض الاشتباك في المنظور الشرعي، بين ما هو غيبي، أو خيال علمي، أو تنبؤ وراثي، أو الأبحاث على أرض الواقع، وبين النظر في الإمكانية المستقبلية لأبحاث الجينوم. وقد جاءت الدراسة في أربعة محاور، الأول: يشمل ملامح عامة عن أبحاث الجينوم، والهندسة الوراثية، الواقع، والخطط المستقبلية، والمتخيلات المصاحبة لها والثاني: يناقش مفاهيم الغيب بوصفه مرجعية لأصحاب الديانات السماوية والإسلام منها، والفلسفات المادية والعلمانية.

والثالث: يناقش التشابكات بين الخيال العلمي والتنبؤ والواقع، من حيث أوجه الاتفاق والاختلاف بينها، أما المحور الرابع: فيبحث في دور الفقه الافتراضي وعلم الجينوم في ضوء علم المقاصد، من أجل تقديم رؤية شرعية الإسلامية متكاملة.

مقدمة

يسعى الباحث في هذه الدراسة إلى الإجابة عن سؤال مفاده: ما حدود الخيال العلمي وما علاقته بالشريعة الإسلامية؟ ذلك أننا أمام ثورة علمية كبرى في مجال علم الهندسة الوراثية، وما استتبعه من آمال مستقبلية، تبشّر بخير كثير في المستقبل يتضمن علاج أمراض وراثية، بعضها مزمن، وبعضها أنتج تشوهات، وكثير منها أدى إلى وفاة ملايين البشر؛ ولكنها تحمل إنذارات بشر مستطير يمكن أن ينتج عن الإفراط الخيالي، واندفاع العلماء والباحثين في التجارب المعملية إلى قضايا شائكة، من مثل الاستنساخ، والتخطيط لإيجاد كائنات جديدة، تجمع مزايا مختلفة، من خلال التحكم الوراثي المعملي.

لقد أدى هذا إلى إيجاد ساحة كبرى من الجدل في العالم، اشتركت فيه عشرات الأطراف، ما بين علماء حالمين، وباحثين مهووسين، وعلماء دين محذرين، ومفكرين متأملين، وتعاظم النقاش وبات من الصعب التسليم بين مناقشة التخييل والأحلام، وما تحقق على أرض الواقع، وما يتم تخليقه في المختبرات، وما لا نعلمه من أبحاث سرية، أو النزعة التجارية وفق ما تعلنه بعض الشركات في العالم عن خرائط جينية للفرد، تعود إلى آلاف السنين من تكوينه، وكيف يمكن التنبؤ بمستقبل الفرد الجيني، وغير ذلك من الترهات.

ومن هنا، تكمن الأهمية في فض الاشتباك، ووضع النقاط على الحروف، في المنظور الشرعي، من أجل التفرقة بين ما هو غيبي، أو خيال علمي، أو تنبؤ وراثي، أو أبحاث على أرض الواقع، والإمكانية المستقبلية؛ مما يستلزم إعادة مناقشة هذه المفاهيم، ومن ثم الوصول إلى رؤية واضحة، تفصل التخييل عن التنبؤ، وتفسر الفرق بين الغيبي والواقعي، وتفتح المجال أمام الفقيه للتعاطي الإيجابي مع المستجدات العلمية في أبحاث الجينوم، ليس على المستوى الإنساني فحسب، وإنما على مستوى جميع الكائنات والخلائق.

وفـي ضـوء ذلـك جـاءت هـذه الدراسـة علـى أربعـة محـاور، الأول: يقـدم صـورة؛ اجتهـد الباحـث أن تكـون كليـة، بملامـح عامـة عـن أبحـاث الجينـوم، والهندسـة الوراثيـة، الواقـع، والخطـط المسـتقبلية، والمتخيـلات المصاحبـة بهـا.

والمحـور الثانـي: يناقـش فيـه الباحـث مفاهيـم الغيـب بوصفـه مرجعيـة لأصحـاب الديانـات السـماوية والإسـلام منهـا، والفلسـفات الماديـة والعلمانيـة التـي هـي مرجعيـة أخلاقيـة وقيميـة لحركـة العلـم المعاصـرة، وتحضـر المقارنـة فـي النقـاش بينهمـا.

المحـور الثالـث: يناقـش التشـابكات بيـن الخيـال العلمـي والتنبـؤ والواقـع، مـن حيـث أوجـه الاتفـاق والاختـلاف بينهـا، ومـن ثـم الوصـول إلـى رؤيـة لمـا يمكـن أن يكـون علـى طاولـة النقـاش للعالِـم والفقيـه، بـدلا مـن الإغـراق فـي خيـالات لا أسـاس لهـا.

أمـا المحـور الرابـع: فيبحـث فـي دور الفقـه الافتراضـي وعلـم الجينـوم فـي ضـوء علـم المقاصـد، مـن أجـل تقديـم رؤيـة شـرعية الإسـلامية فـي المشـكلات القائمـة، وهـو أمـر لا يمكـن بـأي حـال مـن الأحـوال فصلـه عـن دور عالـم الشـريعة ولا ثقافـة المجتمـع العربـي المسـلم، ولا عـن القوانيـن والتشـريعات التـي لابـد مـن وضعهـا مـن أجـل تأطيـر عمـل علمـاء الجينـوم، وأبحـاث الأطبـاء فـي ذلـك. فـإن غابـت الرؤيـة الشـرعية، فحتمـا سـتوضع قوانيـن مترجمـة عـن الغـرب، أو قـد تغيـب القوانيـن ذاتهـا، وفـي كلتـا الحالتيـن، فـإن المجتمـع المسـلم خاسـر، بسـبب تقاعـس الفقيـه والقانونـي، عـن متابعـة الثـورة الجينيـة فـي العالـم، وطـرح الأسـئلة الشـرعية والقانونيـة علـى مسـتجداتها، وهـذا يسـتلزم الوعـي والعلـم والفهـم المتعمـق لطبيعـة أبحـاث الجينـوم، ومـا أضافتـه للبشـرية.

إن هنـاك إشـكالية تشـير إليهـا أدبيـات الفلسـفة العلميـة، ألا وهـي وجـود ثقافتيـن فـي حياتنـا الفكريـة والعلميـة المعاصـرة وليسـت ثقافـة واحـدة، وهمـا: ثقافـة المشـتغلين بالفنـون والآداب، والإنسـانيات عمومـا، وثقافـة المشـتغلين بالعلـوم الطبيعيـة والرياضيـات والطـب والجينـوم..، وهمـا فـي حالـة انفصـال، وإن وجـد اتصـال بشـكل أو بآخـر فهـو مرحلـي مؤقـت، ثـم ينغمـس كلا المشـتغلين فـي الثقافتيـن بأبحاثهمـا.

ومن هنا، كان لزاما وجود ثقافة بينة، ناتجة عن تزاوج دائم بين كلتا الثقافتين[1].

يقال هذا، لأننا على قناعة تامة، بأن الفقيه إذا عُزِل عن مستجدات العلوم والطب، فهو يؤدي إلى تخلف الخطاب الشرعي من ناحية، ولن يكون للإسلام مكانة في ساحة الجدل العالمية، مما يعني تخلف الفتوى، بينما قاطرة العلم منطلقة.

ثورة الجينوم بين المختبر والمتخيل:

يثير علم الجينوم -وما يتصل به من أخلاق وسياسات- قضية العلاقة بين الخيال والتنبؤ العلمي، لأن المنجزات العلمية في أبحاث الجينات والهندسة الوراثية في تسارع كل يوم، لذا يجب أن يكون هناك نقاش وتعاط إيجابي مع المستجدات، والنظر في كيفية مساهمة هذه العلوم في قضايا تمس حياتنا المعاصرة.

فالإشكالية التي تثيرها أبحاث الجينوم، أنها تشكل فاتحة جديدة للمستقبل البشري، وكيف اشتط الخيال بالعلماء والأدباء والفنانين، وهم يقرأون ما تمخضت عنه الهندسة الوراثية، وما بات يعرف باسم «العصر الجينومي The Genomic Era»، الناتج عن اكتشاف الإنسان للخريطة الجينية، وفق الإعلان الشهير في الخامس عشر من فبراير 2001م، والآمال العريضة التي أنتجت حالة من الثورة المعرفية، حيث تحوّل الإنسان من البحث في الظواهر الكونية، إلى الغوص في أعماق تشكيله الوراثي، والنظر في إمكانية التحكم بخريطته الجينية، وهو ما أطلق عليه البعض «القنبلة الجينومية The Genomich Bomb»، والخوف الذي صاحب الناس من التحكم في تركيب الإنسان ذاته، واللعب في البنية التركيبية التي تكون بها، على مدى آلاف السنين[2].

(1) الإنسانيون الجدد: العلم عند الحافة، تحرير: جون بروكمان، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، (مقدمة المترجم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م، ص7.

(2) العصر الجينومي: استراتيجيات المستقبل البشري، د. موسى الخلف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، 2005م، ص11، 12.

إنه إفراط في الخيال، لأن الواقع يفيد أن ما تم كشفه في الخريطة الجينية حتى عهد قريب؛ يقتصر على قراءة الموروثات الجينية، فيما يمكن تسميتها بالأبجدية الجينية، فقد تمت معرفة أسماء الجينات التي يتكون منها الجينوم البشري، ولكن لا تزال الأبحاث مستمرة في معرفة آلية عمل الجينات، وكيف تموت أو تحيا بعض الخلايا مسببة أمراضا كثيرة. وهو ما جعل خيال العلماء بين أمرين: الخيال الإيجابي عن طريق فهم التاريخ التطوري للفرد، والتمكن من تحديد الجينات المسؤولة عن الأمراض، والنظر في إمكانية إجراء جراحة جينية، لإصلاح الموروثات المعطوبة في الخلايا الجسدية دون المساس بالخلايا التكاثرية، وتطوير الهندسة النسيجية لإنتاج أنواع كبيرة من النسج الخلوية عن طريق خلايا المنشأ، ليتم استخدامها في عمليات زرع الأعضاء. أما الجوانب السلبية، فتتمثل في الخوف من تغيير الطبيعة الجينومية للكائنات الحية ومنها الإنسان، واللعب في جينومات الخلايا التكاثرية، والاستنساخ وعواقبه، في ضوء الشيخوخة المبكرة للنعجة دوللي[1].

وتتطرق خطة أبحاث الهندسة الوراثية والمزمع تطبيقها خلال الفترة (2020-2050م) إلى فصل الجينات الشخصية الرئيسية، التي تسهم في الخصائص متعددة الجينات، وبذلك لن يتمكن العلماء من رؤية النسيج الكامل لهذه الجينات، ولكنهم يسعون إلى فصل الخيوط التي حيكت منها منفردة، ثم فجصها، مثل شكل أجسامنا، وملامح وجوهنا والأشكال الأولية لسلوكياتنا. ويعمل العلماء على حياكة هذه الخيوط المنفردة مع بعضها، وتحديد كيفية صنع تصور للنسيج بأكمله، على أمل استنبات أعضاء كاملة من الجسد (مثل الأجنحة في الطيور أو الذراع في الإنسان). ويطمح العلماء إلى مزيد من التقدم في مجال الكائنات مختلطة الجينات، فيما يتعلق ببروتين واحد منقول من أحد أشكال الحياة إلى الآخر، وهذا منحهم الأمل لإنتاج كائنات جديدة ولاستنساخ أخرى، والسعي إلى التحكم في تكوين البشر مسبقا، لذا هم يأملون أن يتم تحديد الشكل العام

(1) السابق، ص63- 77.

لجسم الإنسان والأشكال البسيطة للتصرف فيها، ليكون السؤال عن الطموح في استخدام هذه الأساليب التقنية لإنتاج «أطفال مصممين» بحيث يختار الآباء ويقررون جينات أطفالهم وأطوالهم وملامحهم، مما يعني وجود تجارب في ذلك عن طريق هرمونات نمو مهندسة جينيا[1].

هذا، ينشغل العلماء بالنظر في إمكانية معالجة جين الذاكرة في البشر، والسعي إلى تصنيع دواء لمساعدة مرضى ضعف الذاكرة والخرف (الزهايمر)، والبحث في كيفية استيعاب الفرد لخبرات جديدة عن طريق ابتلاع بروتين يساعدنا على تشكيل مشابك عصبية Synapases جديدة. ويطمح العلماء أكثر في تعديل جينات التصرف، لعلاج إدمان الخمور، الذي يؤدي إلى نصف حوادث المرور وأعمال العنف في الولايات المتحدة الأمريكية، ويكلّف حوالي بليون دولار سنويًّا[2].

إلا أن الكارثة تتمثل في تخيل بعض العلماء أنه من الإمكانية خلط الجينات البشرية مع كائنات أخرى (حيوانية أو نباتية أو طائرة مثلا) بشكل عشوائي، لإنتاج كائنات جديدة، وتؤلف كتب في ذلك تشعل خيال القراء، غير منتبهين أن هذا خيال جامح لا يمكن تحقيقه، لأن كثيرا من الجينات التي تتحكم في الشكل العام لأجسامنا لا تنشط إلا في الحالة الجينينة، وعند البلوغ تكون هذه الخلايا قد تخصصت في أعضائنا الحالية، فلا يمكن استجابتها لتعليمات جديدة تغير من وظيفتها، لذا، فإن الحلم بدمج (د. ن. أ) مأخوذ من حيوانات أخرى، لن يسبب تغيير جسم الإنسان إلى حيوان، كما أن هذا الخلط العشوائي سيغلق العديد من العمليات البيوكيميائية للخلية البشرية، وقد تتوقف الخلية عن العمل نهائيا وتموت، والعلماء يعترفون أن فك شفرة عضو يحوي آلاف الجينات مهمة مستحيلة حتى الآن[3]، ويأتي هذا ردًّا على خيالات بعض المتحمسين من الفنانين.

(1) رؤى مستقبلية: كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ميتشو كاكو، ترجمة: د.سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م، ص294 - 297.

(2) السابق، ص300 - 302.

(3) السابق، ص305.

وقد تطرف البعض متخيِّلاً أن تأتي أبحاث الجينوم بعلاج للمشكلات السلوكية الفردية، والتي لها تأثير اجتماعي، منتصرين لمفهوم «الحتمية الوراثية»، التي تتوارث فيها الإرادة والمسؤولية والأخلاق. إلا أن العلماء يردون على هذا مؤكدين أنه لا يوجد أي تفسير للحتمية الوراثية، بل على العكس من ذلك، فالثابت أن كل ما يقال عن الجينات من موروثات أخلاقية ينطبق بدرجة مساوية على البيئات التي ينشأ فيها الفرد، أو يعيش فيها، فيما أسموه «الحتمية البيئية». والبرهان على ذلك بحثٌ أجري على جريمة القتل في مجتمعات مختلفة، خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، فكان المعدل في ولاية شيكاغو الأمريكية (900) جريمة لكل مليون من السكان في السنة. وفي إنجلترا وويلز، كان المعدل (20) أما أيسلندا فلا يكاد يوجد بها جرائم قتل على الإطلاق. وهذه البلدان لا يوجد فيها اختلاف في الجينات، ولا في الطبيعة البشرية، مما يعني أن المسألة ليست جينية وإنما تعود إلى المجتمعات ذاتها والسياسات المتبعة فيها[1].

لقد تبارى الفنانون والأدباء، وراحوا يصوغون روايات ونصوصا شعرية وأعمالا تشكيلية وأفلاما، تمتاح من الفلسفات والمتخيل العلمي وبعض أبحاث العلماء. وبعضها يسرف في التخيل بما يضاد حقائق العلم، ففي الفيلم الكارتوني (فرانكنويني Frankenweenie، 2012 م)، يستند صنّاع الفيلم إلى فلسفة المادة، التي تنحّي الروح تماما، وتجعل الموت مرضا قابلا للعلاج، بطرق يمكن التوصل إليها مستقبلا، فقد استطاع الطفل الصغير «فيكتور» أن يعيد الحياة لأشلاء كلبه «سباركي»، الذي دهسته سيارة، مستخدما كهرباء الصاعقة[2].

هذا المفهوم يلتقي مع بعض المشروعات التي تعمل عليها شركات في الولايات المتحدة، وأوروبا، من خلال تجميد الجسد وحفظه في درجات برودة منخفضة

(1) الفهم الصحيح للطبيعة البشرية، هيلينا كرونين، في كتاب: الإنسانيون الجدد: العلم عند الحافة، م س، ص65، 66.

(2) السينما واللاوعي: الخطاب الشعبي للإلحاد، أحمد حسن، منشورات مركز براهين، لندن، ط2، 2016م، ص68.

للغاية إلى أكثر من 190 درجة تحت الصفر، فالجليد خير وسيلة لحفظ الجسد الإنساني، والدليل على ذلك اكتشاف هياكل عظمية متجمدة منذ آلاف السنين. على قناعة تامة أن الإنسان يمكنه تحقيق حلمه القديم بالخلود الأرضي.

وبعض شركات تجميد الأعضاء في العالم، تقوم بعملية الحفظ العصبي؛ أي تجميد الدماغ وحسب وليس حفظ الجثة بأكملها. وشعارهم: «أن المستقبل سيكون مكانا لائقا جدا لكي نعيش فيه، ونريد الاستمرار في العيش والاستمتاع والإنتاج».

ومعلوم أن عملية حفظ الموتى بالتجميد تتم على أمل التوصل لعلاج أمراضهم المستعصية، والتي تعرف باسم «كرايونيكس»، وهي عملية مثيرة بالنسبة لمجتمع المولعين بالمستقبل. والافتراض العام لهذه العملية بسيط جدا، ومفاده أن الطب يحرز تقدما كل يوم، وأن أولئك الذين يموتون اليوم ربما يمكن شفاؤهم في المستقبل[1].

أما فكرة الاستنساخ البشري، فهي الأكثر إشكالية، وأرى أنها وجه آخر للحفاظ على الذات الإنسانية من الموت، فالإنسان الراغب في استنساخ ذاته، يرغب في إبقاء ذاته خالدة، متصورا أن الروح سيتم استنساخها مع الجسد أيضا، لينعم بالخلود بصورة أو بأخرى. إنه رافض للموت، غارق في أرضيته ودنيويته، يريد

(1) هل يمكن للعلم أن «يحتال على الموت» بتجميد أجسادنا؟، روز إيفيليث، ا سبتمبر / أيلول 2014، على موقع BBC عربي.

http://www.bbc.com/arabic/scienceandtech/20141/09/

فعند إعلان وفاة المريض رسميًّا، يمكن لعملية الحفظ أن تبدأ. ينقل المريض أولا من سرير المستشفى إلى سرير من الجليد، ويغطى بالثلج الممزوج بالماء. ثم يستخدم جهاز لإنعاش القلب والرئتين لجعل الدم يتدفق في الجثة مجدَّدًا. ثم يتم استخدام 16 نوعا مختلفا من الأدوية التي من شأنها الحفاظ على الخلايا من التلف بعد الموت. وتتضمن الخطوة التالية تصفية جثة الميت من أكبر قدر ممكن من الدم والسوائل، واستبدال ذلك بمحلول يمنع تكون كتل ثلجية داخل الجسم.

الفوز بكل المزايا، والمنافع، والللذائذ، بما فيها لذة الخلود الأبدي، وهم متسقون في ذلك مع العلمانية الشاملة، التي تقترب من الإلحاد في مفاهيمها، لأنهم راغبون في انتزاع حق الله تعالى في الخلق وفي الإماتة، وجعله بيد الإنسان.

وقد عبرت عن ذلك السينما العالمية، كما في فيلم «اليوم السادس The 6Th Day» (1999م)، وفيلم (2008) «Expelled: No Intelligence allowed»، وكلاهما يتناولان فكرة الاستنساخ البشري، من خلال زرع الحمض النووي في الخلية الحية، والحصول على كائن بشري مشابه لصاحب الخلية، ويتغافلون عن كون نسبة نجاح الاستنساخ في التجارب الحيوانية قليلة، لأن الحمض النووي المنقول من الخلية الجسدية إلى الخلية الفارغة، يحمل كل ما في الأصل من أمراض، وطول العمر المفترض، وهو ما ألهب خيال الفنانين والعلماء، وظنوا أن الخلود سيتحقق عن طريق الاستنساخ، طامحين إلى نسخ ذاكرة الفرد الأصل إلى الإنسان المستنسخ الجديد، وتوهموا أن الذاكرة مادية بحتة، بمعنى أنه من الممكن استنساخ الجانب الروحي أيضا.. وكلها ترهات[1].

وللأسف وجدنا من ينظّر لها على مستوى الدول، ويكفي أن دعاوى تحسين النسل في الولايات المتحدة، وأوروبا، والتي بدأت مبكرا في مطلع القرن العشرين، تمتزج بنزعة عنصرية فجة، تنادي بأهمية الحفاظ على سلالة الرجل الأبيض الذكي المتحضر، من عدم الاختلاط بالمهاجرين، وإفساد العرق. وللأسف كانت توازيها في المقابل دعوات لتعقيم الفئات والشرائح والعرقيات المخالفة للعرق الأبيض، وكذلك التخلص من أصحاب العاهات وذوي الأمراض المزمنة، والأمراض العقلية.

وقد عادت هذه الدعوات، مع انتشار الثورة الجينية وآمالها، فعاد هؤلاء ينادون بأهمية الفرز قبل الولادة، أي فحص المواليد جينيًّا قبل ولادتهم ومن ثم التخلص من غير المرغوب فيهم، وتوفير اختبارات الفرز الوراثي للوالدين من أجل اختيار

(1) السينما واللاوعي: الخطاب الشعبي للإلحاد، م س، ص70 – 73.

جينات أطفالهم. تحت شعار قانون المنفعة الليبرالي: «دعه يعمل، دعه يمر»، والمحور إلى «دعه يعمل، لتحسين النسل». ومن الكوارث أنه يتم الآن في العالم التخلص من الأجنة (بعد بث الروح فيها)، والتي دخل في تركيبها كروموسوم 21 الإضافي، لأنهم سيولدون بمتلازمة داون، وسيسببون الشقاء لعائلاتهم، على اعتبار أنهم قد يعيشون في الدنيا بعض الوقت، ولكن أعمارهم في الغالب قصيرة. ويرى هؤلاء أن هذا ليس قتلا، فالجنين لا وعي ولا إرادة ولا استقلال له، فالتخلص منه لن يضيره ولن يضير أحدا غيره. وبالطبع هذا يلتقي مع كلام دعاة محاربة الانحطاط السكاني والعرقي، الذين يستهدفون الحفاظ على نقاء العرق، وتحسين النسل القادم، وهذا -في رأيهم- يفيد المصلحة الجماعية للدولة[1].

الملاحظ فيما سبق، أن الإنسان أضاع في تخيلاته وآماله وفلسفاته الجانب الديني، وتعامل مع الأمر بمنطق بشريته الغارقة في نفعيتها وأرضيتها، وكأن القضية محصورة في جسده فقط، يتحكم فيه كما يشاء.

الغيب والفلسفة والعلمانية:

من أجل النظر في قضية الجينوم وإشكالاتها بشكل معمق، علينا مناقشة مجموعة من المفاهيم ذات الصلة، من أجل فك اشتباكات متعددة حولها، فيما يتعلق بالرؤية الإسلامية والشرعية منها.

أولى هذه القضايا **مفهوم الغيب**، لأن حضور الغيب في النقاش الخاص بالجينوم وأبحاثه أمر أساسي مرتبط بلبّ العقائد الإلهية عامة والإسلام منها خاصة، فلا يمكن مناقشة علماء الإسلام وفقهائه لقضايا الجينوم، بمعزل عن مفهوم الغيب بوصفه معتقدا أساسيا، لأن الغيب يعني أولاً أن الإنسان مهما اكتشف وعرف من أسرار الكون أو الجسد، فهو يدور في فلك خلق الله سبحانه وتعالى، فلم يأت

(1) الجينوم: السيرة الذاتية للجينوم البشري، مات ريدلي، ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، 2001م، ص340-344.

بجديد عما هو موجود. وهو ما يسميه علماء الجينوم بـ«المصمم الذكي»[1] فقد وجدوا أن الخارطة الجينية غاية في الإبداع والتركيب المعقد، ومن الصعب تغييرها كما يحلم مهووسو أبحاث الجينات، لأنها تحمل تراكمات هائلة تعود إلى عشرات الآلاف من السنين. وفي جميع الأحوال، من الخطأ تصور أن التلاعب المخبري سيكون تحدِّيًا للخالق جل شأنه، فأينما ذهبنا وفعلنا فنحن ندور في فضاء خلقه.

بداية، لا بد من الاعتقاد / الإيمان بأمور غيبية لا ولم ولن يكون بمقدور المؤمن الاطلاع عليها، لذا يمتدح الله المؤمنين بقوله جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، أما الأمور الغيبية فهي التي قدرها الله سبحانه وتعالى ولم يُعلمها للبشر إلا من خلال ما أوحاه إلى رسله، ومنها ذات الله سبحانه وتعالى، والملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر[2]، ونحن مأمورون أن نؤمن بها كما وردتنا في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة وما ذكره العلماء شرحًا وتفسيرًا وتقعيدًا لها. فالإسلام حدد قضايا غيبية بعينها، أجاب بها عن أسئلة تعتمل في ضمير الإنسان، تتصل بما وراء الطبيعة، وماهية الكون، والخالق العظيم، وما بعد الموت، وغير ذلك من الأسئلة التي حيرت الفلاسفة والكهنة، وكانت سببا في نشوء الديانات الوضعية والوثنيات حتى أرسل الله للبشرية أنبياءه ورسله متتابعين، فأعلموهم بما جهلوه، مؤكدين أن الغيب بيد الله تعالى.

وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 179]، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]، وهو توجيه رباني سام إلى الإنسان أن ينأى بنفسه عن كدّ عقله فيما وراء الوجود، فللغيب مفاتيح بيد الله وحده، أطلعنا على بعضها عبر الوحي المنزل على رسله وأنبيائه، ليريح العقول الحائرة، ويدفعها لعمارة الأرض تحقيقا لخلافة الله عليها.

(1) السينما واللاوعي: الخطاب الشعبي للإلحاد، ص73. والمقولة مأخوذة من حوار بأحد الأفلام بين عالم جينوم وزميله، حول مدى وجود الله سبحانه تعالى في صنع خريطة الجينوم.

(2) العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط11، 1418هـ، 1998م، ص13.

وكما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: 26-27]، حيث يذكر الإمام القرطبي في تفسيره للآية الكريمة الأخيرة: إن عالم الغيب والغيب ما غاب عن العباد. فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات، فقد فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله، مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه[1].

أما المنجمون ومن في حكمهم من سحرة ومشعوذين، فهؤلاء ساعون إلى استكناه المستقبل، ومعرفة ما يخبئه القدر، وهذا بيد الله سبحانه.

تلك رؤية الإسلام، والتي نعلم من خلالها أن الكون كله من خلقه تعالى، وأن هناك غيبيات علمناها من الرسالات والنبوات، وأن ندرك جيدا أننا نسعى وندب في ملك الله، ولا يجوز الافتئات على ملكه تعالى، ولا التفكير بندية، خاصة فيما يتعلق بقضايا الروح والأجساد والنظام الشرعي المعتمد.

إلا أن علماء التاريخ في الغرب، يستندون إلى فلسفات مادية وضعية في قراءتهم للتاريخ، وحقبه، وموقف الإنسان من الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة، فكل ما ورد ذكره في الآثار والأحجار والحفريات (الأركيولوجي) يُعد مصدرا للمعلومة وصياغة الحقائق. لذا، ينحّون كثيرا تفسيرات الكتب السماوية، أو يضعونها ضمن الأساطير التي لا تعدو أن تكون مفسرة للتطور الفكري للإنسان على الأرض.

والمثال على ذلك، كتاب «فجر الضمير» حيث يتتبع فيه المؤلف ما أسماه بالضمير عند الإنسان القديم، والذي يعني سعي الإنسان إلى معرفة الآلهة،

(1) الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، دار الفكر للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، ج19، ص26، 27.

وينحاز المؤلف إلى أن الدين فكرة اجتماعية، اخترعها الإنسان كجزء من تطوره الأخلاقي والقيمي، كي يرتقي من الطابع الحيواني، ويسمو إلى مستويات عليا من السلوكيات الطيبة. فـ«عصر الأخلاق الذي نتج عن ظهور الضمير لا يكاد يزيد عمره على أربعة آلاف من السنين، والواقع أن تطور حياة الإنسان كالتطورات الطبيعية الأخرى، يسير في بطء، وقد يكون سير الانتقال العظيم نحو الكمال كبطء النشوء والتطور الإنساني في الطبيعة»[1].

إنه يتخذ من الطبيعة فلسفة وقوانين حاكمة للكون، أي أن الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره وتنظّم أموره في كل جزئية، والأحداث التي تقع فيه تكون وفق هذه القوانين، مثله كمثل الساعة التي تسير بانتظام دهرا طويلا. وقد جاءت نظرية دارون لتؤكد هذا المنحى، وقد استند دارون إلى الحفريات الأرضية في زمانه. وقد استند دارون في نظريته في التطور بأمرين: الانتخاب الطبيعي فعوامل الفناء تقوم بإهلاك الكائنات الضعيفة وتبقي على الكائنات القوية، ضمن قانون البقاء للأصلح، وتتجمع الصفات القديمة لتنشئ كائنا يرتقي بتلك الصفات إلى كائن أعلى. ثم يأتي الانتخاب الجنسي بوساطة ميل الذكر إلى الأنثى، ليحدث التزاوج، بين الأقوى والأصلح. وبالطبع هناك ردود كثيرة على هذه النظرية، أبرزها أن علم الحفريات لا يزال ناقصا، ولا يمكن الاستناد عليه، لبناء حقائق ثابتة راسخة، فقد تظهر حفريات تنقض ما سبق، وتعيد التفكير فيه مرة أخرى([2])، كما أن سلاسل الحفريات نفسها لم تكتمل، لتنهض دليلا غير قابل للشك فيما ذهب إليه دارون في تفسيره.

إن المشكلة كامنة في استناد الفكر العلمي الغربي إلى النظرية الداروينية بكل أسسها، وهو ما سنرصده لاحقا في علم الجينات والهندسة الوراثية، فقد أطلقوا العنان لخيالهم، ورأوا أن الإنسان المعاصر هو وريث حيوان تطور بفعل عوامل

(1) فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د. سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص426.

(2) انظر تفصيلا: العقيدة في الله، م س، ص80، 84، 85.

طبيعية، ومن الممكن أن يواصل الإنسان المعاصر المسيرة عبر العلم.

وهو ما يؤكده «بريستيد» بقوله إنه يجب علينا «أن نعترف بالحقيقة التاريخية التي تنطق بأن الانتقال العظيم الذي كنا نناقشه هو ثمرة التجارب البشرية ونتيجتها، وأن القوة المحركة للتقدم الإنساني منذ ذلك الوقت كانت هي الخبرة البشرية، وأن خبرة الإنسان كانت وستبقى دائما أعظم معلّم له»[1]. لينحّي بذلك رؤية الأديان نحو تكوين الإنسان وخلقه وأخلاقه، ونحو علم الغيب.

وكما يرى البعض بأن الخيال العلمي الحديث جعل علم البشر محل قوة الآلهة القديمة، وعلى هؤلاء البشر تقع المسؤولية الأخلاقية في بث الحياة في مخلوقاتهم[2].

وذلك منظور يرى أن الدين أساطير مخترعة بشريا، من أجل تقديم تفسيرات متعددة، فلما جاءت الثورة العلمية في العصر الحديث، فإن نظريات العلماء تكفّلت بالإجابة عن الغامض في الظواهر الكونية، فإن صعب عليها الأمر، فإنها تلجأ إلى التخيل العلمي، على قناعة أن غوامض اليوم، سيفسرها العلم غدًا، وأن العلم والعقل إلهان في عصرنا.

وأضيفت إلى هذه الرؤية فلسفة المنفعة Utilitarianism، والمرتبطة بمفهوم دنيوي محض، يتمثل في أن الخير هو اللذة، والشر هو الألم، فأفضل حالة يمكن بلوغها هي تلك التي يبلغ فيها تفوق اللذة على الألم أقصى مداه، وترتبط هذه القاعدة بعلم النفس من حيث أن ما يسعى الناس إلى بلوغه هو تحصيل أكبر قدر من السعادة لأنفسهم، وكلمة السعادة مساوية تماما لمفهوم اللذة، المهم ألا يمس حق الآخرين في السعي إلى الهدف نفسه، والواقع يقول إن ميل غالبية الناس إلى تحقيق السعادة لأنفسهم، مما يعني أهمية حصولهم على حقوق

(1) فجر الضمير، م س، ص429.

(2) رؤى مستقبلية، م س، ص285.

وفرص متساوية[1].

سنلاحظ أن هذه الفلسفة مبنية على أسس علمانية / لادينية، فهي تقيس الخير والشر بالذات الإنسانية وليس بالرؤية الدينية، فالمنفعة / الخير هما اللذة، التي يحققها الإنسان لنفسه، بأي سبل، وهي تعني في النهاية لذته الحسية، ولم يصبح الشر هو الآثام والمعاصي واللا أخلاقية في الذات والمجتمع، وإنما الشر هو الألم، نقيض المنفعة التي هي اللذة والخير. وهكذا تحوّل الفكر الغربي نتيجة سحب الأساس الديني من تحت قدميه، إلى فكر إنساني / مادي / نفعي، وارتكزت عليه الفلسفات المعاصرة، وما اشتق منها من مذاهب اقتصادية واجتماعية وقانونية، وأصبحت القيم مرتبطة بشكل وثيق بسعادة الفرد ولذاته، أما القانون فيعني ببساطة حقوقا ممنوحة للفرد، وفرصا مساوية له، بما لا يضر حقوق الآخرين.

وقد أشار الفيلسوف بنتام Bentham إلى أن الأخلاق -قبل كل شيء- هي الأساس لدراسات عن الأساليب التشريعية الكفيلة بإدخال أفضل التحسينات على الأوضاع[2]. وهو رأي ينزع من الأخلاق فكرة القيمية والسمو والمرجعية الدينية، لتكون مرتبطة بحركة التغيير الاجتماعي، فالمهم أن يتحرك المجتمع نحو مزيد من التحسين، ولا يهم نوعية هذا التحسين، ولا ارتكازه على قيم، فالغاية تقدم وتطور المجتمع. وإذا طبقنا هذا على ما يحدث في علم الجينوم، سنجد أن كل الحالمين والخياليين يتطلعون إلى تحسين السلالة الإنسانية، وتحقيق ما يصبو إليه الفرد، من قوة وسعادة وخلوٍّ من الأمراض، وضمان أن ينجب أطفالا حسب الشروط الخاصة التي يريدها لنفسه. ويتطور الأمر أكثر، لتتحسن السلالة الإنسانية، أو بالأدق الأمل في نسل قادم، يتم تخليقه في المعامل والمختبرات،

(1) حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، برتراند رسل، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، 2009م، ص181- 185.

(2) السابق، ص183. يشير المؤلف إلى أن بنتام كان ذا مزاج انطوائي هادئ، ولكنه كان ينكر الدين بعدوانية شديدة.

حسب المواصفات المطلوبة منه، ولا بأس من أن يكون خليطا من الإنسانية والحيوانية أو النباتية.

الخيال والتنبؤ والواقع:

فيما يتعلق بعلم الجينوم، فإن هناك التباسات كثيرة بين الخيال والتنبؤ والواقع، فالإنسان العادي، الذي يقرأ الصحف والروايات، ويتابع التلفاز والقنوات الفضائية، ويشاهد السينما، يجد نفسه في حيرة كبيرة، فهو لا يستطيع التمييز على مستوى المتحقق بين المتخيل الذي يراه في السينما أو يقرأه في الروايات، وبين المعلومات المؤكدة التي توصل إليها العلماء. فيمكن القول إن هناك حالة من التشويش بين ما يقال وبين الكائن بالفعل.

وفي سبيل ذلك، من المهم تأسيس قاعدة للنقاش، حول علاقة الجينوم بكل من الخيال العلمي والتنبؤ والواقع، وهي ثلاثية إذا تأملنا فيها، سنجدها تكاملية، فلا خيال دون واقع، ولا تنبؤ دون إعمال الخيال في الواقع، ولا واقع يتحقق إلا بخيال مسبق، وتنبؤ علمي واثق.

بداية، فإن مفهوم الخيال العلمي هو نوع واسع شامل من الإبداع يعتمد على التأمل، الذي يقوم على أسس العلم والتكنولوجيا الحالية أو المستقبلية. وعناصر الخيال العلمي تكون ممكنة فقط داخل سياق الطبيعة المفترضة علميا أو التي تعتمد على العلم. إلا أنها متحررة بشكل كبير من قوانين الزمان أو المكان، أو السببية والمنطق العلمي. لذا، فإن الأعمال الإبداعية المعبرة عن الخيال العلمي تشتمل على وجود موقع للأحداث في المستقبل، في أزمنة أخرى بديلة، وقد تكون في الماضي أو المستقبل. ويمكن أن يكون المكان في الفضاء الخارجي أو في أمكنة أخرى في العالم ستوجد في المستقبل. وقد تشتمل أعمال الخيال العلمي على قصص وأحداث وتكنولوجيا أو مبادئ علمية تتناقض مع المبادئ العلمية القائمة أو المستقرة بين الباحثين، مثل السفر عبر الزمن، واستخدام النانو

تكنولوجي، أو الإنسان الآلي[1]، أو المخلوقات المتكونة في مختبرات الجينوم.

تكمن مشكلة الخيال العلمي مع الجينوم، في هذا الإسراف في التخيل المستقبلي، وهو تخيّل يخرج يمثل تطاولا على القواعد الدينية والشرعية، عندما يبحثون في تخليق كائنات معمليا، والقفز على مفهوم الزواج من خلال الاستنساخ.

هذا، ومن المهم التمييز بين التنبؤ المؤسس على نظر علمي، وبين الرؤى اللاعلمية هو المحتوى الإمبريقي، وما يتم الكشف عنه من وقائع، يمكن أن يستند إليها العالم في تنبؤاته المستقبلية. وهذا يفارق ما تسوقه نظريات وفلسفات، لا تستند إلى معطيات علمية ثابتة، وإنما تعتمد على خيالات، تنسفها الوقائع والكشوف والتجارب. لذا، يرى العلماء أن نظريات التنجيم، والتحليل النفسي، والماركسية، تقدم رؤى وسرديات، قد تكون متسقة على مستوى الطرح النظري، من خلال النسق الذي تعرضه، ولكنها في الواقع لا أساس لها. ويستشهدون على ذلك بتنبؤات نيوتن وأينشتاين، فكلاهما بنى فرضياته العلمية، على وقائع وتجارب محددة، وجاءت على عكس المتوقع والسائد في أوساط العلماء، وكانت هناك طروحات تخالفها، ومع ذلك تم قبولها، لأنها تستند إلى براهين وأدلة، يمكن البناء عليها[2].

وهو ما ينسحب إلى خيالات العلماء والفنانين في علم الجينوم، فمن المهم عدم الإسراف في التخيل دون الاطلاع المستمر على المستجدات العلمية، وأبحاث العلماء التي قد تثبت أو تنفي المتخيل، فكثير من الحالمين يأخذون بعضا من المعلومات والتجارب أو تنبؤات العلماء بعد تجربة ما، ثم يسرفون في التخيل، مقدمين أنساقا تبدو للمطلع عليها أنها مقبولة منطقيا، ثم تأتي تجارب لاحقة فتنفي كل هذا، بل وترى استحالته العلمية.

(1) الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2009م، ص253، 254.

(2) التمييز بين العلم واللاعلم: دراسة في مشكلات المنهج العلمي، د.محمد أحمد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م، ص177 - 180.

ينبع مفهوم التنبؤ العلمي «من قواميس الكون وأحكامه، ثم إنه يتماشى معها، ولا يتعارض مع قواعدها»، «فكلما تعمقنا في دراسة الظواهر الطبيعية والنواميس الكونية، والشرائع البيولوجية، ثم جمعنا كل هذا في حصيلة علمية هائلة، ثم صغناها في معادلات ونظريات وقوانين، فإن المعادلة والقانون يأخذان بأيدينا، ويرشداننا إلى توقعات وحقائق كثيرة قد لا تستوعبها حواسنا، لأنها تقع فيما وراء حدودها، ثم إن هذه المعادلات ليست من بنات أفكارنا، بل هي منبثقة من النظم التي تمتد فينا وحولنا بغير حدود»[1]. فالتنبؤ العلمي لا يكون خيالا محضا، وإنما يعتمد على براهين وأدلة وقوانين ثابتة علميا وكونيا، ومن ثم يبني عليها.

أما «التنبؤ الوراثي» فهو أداة قوية للمستقبل، وليس إلا أداة فحسب. وهو يستطيع أن يوسع مجال معرفتنا ويساعدنا على تخطيط استراتيجيات تعطي فرصا أفضل للعيش في صحة. ولكنه ليس مجرد الآلة الجديدة أو الفكرة المبتدعة أو الطريقة الفضلى والأسرع والأكفأ لفعل شتى ما كنا نفعله دائما[2].

بمعنى أن التنبؤ هو التخيل الأكثر دقة، الذي يدفع العالم بعدما تأكد من نجاح تجاربه، إلى التفكير في سبل تطويرها، وكيف تعود بالنفع على الإنسانية.

لذا، فإن التنبؤ الوراثي بالمعنى الحرفي أمر له القدرة على تغيير طريقة حياتنا. فهو سيدخل أولويات جديدة بالنسبة لبعض من أهم القرارات الرئيسة التي يجب علينا اتخاذها-قرارات عن المهنة التي نختارها والمكان الذي نعيش فيه، والشخص الذي نتزوجه فهو باختصار ينفذ إلى الصميم من حياتنا[3].

ففي ضوء ما تم في علم الجينات، يمكن للتنبؤ العلمي مثلا بحث ما يفيد

(1) التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، د. عبد الحسن صالح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1981م، ص12، 13.

(2) التنبؤ الوراثي، زولت هارسنياي، ريتشارد هتون، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988م، ص245.

(3) السابق، ص245.

الإنسانية من مثل: خصوصية المعلومات الوراثية Privacy of genetic information، فالأفراد (أو الوالدين في حالة الأجنة والأطفال) الذين يخضعون للفحوص الجينية ليسوا هم وحدهم من يهمهم الاطلاع على نتائج تلك الاختبارات؛ فأفراد الأسرة، والأزواج وأرباب العمل المحتملون، وشركات التأمين، ووسائل الإعلام (في حالة كون المفحوص شخصية عامة أو شهيرة) والحكومة، كلهم قد يرغبون في الحصول على معلومات بخصوص البنية الوراثية لشخص بعينه، وهذا لا بأس به، مادامت هناك تشريعات وقوانين تحسم الخصوصيات والسرية. وكذلك استزراع الأعضاء (قطع الغيار البشرية)، فهناك ما يزيد على (60,000) إنسان في جميع أنحاء العالم ممن يحتاجون لزراعة الأعضاء سنويًّا في المتوسط، غير أنه لا يتوفر سوى نحو(34,000) عضو للزرع، فهل يمكن التنبؤ بأن قطع الغيار البشرية مستقبل الطب؟ و يتنبأ العلماء في أن يأتي اليوم الذي يتمكنون فيه من «إنتاج» قطع غيار لجميع أعضاء الجسم البشري وبكميات كافية؛ فعلى سبيل المثال، ففي عام 1997، لم يحصل سوى 2,300 من أصل 40,000 من مرضى القلب في الولايات المتحدة على القلب الجديد الذي يحتاجونه. ويأمل الباحثون في أن يتمكنوا من «توجيه» الخلايا الجذعية، بحيث تتحول إلى أعضاء محددة قابلة للزرع في أجسام المرضى(1)، وغير ذلك.

الفقه الافتراضي وعلم الجينوم:

في ضوء ما تقدم، فإن أبحاث الجينوم فيها الكثير من الإشكاليات، عندما يتم النظر إليها من المنظور الشرعي الإسلامي، ولابد من وضع النقاط على الحروف في القضايا التي تحتاج إلى بحث وتمحيص من قبل الفقهاء.

ولا شك أن دعوى بعض الفقهاء الخاصة بالتجارب المُشكِلة في الجينوم، حيث

(1) الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية، د.إيهاب عبد الرحيم محمد، نشر خاص، د ط، دت. ص36، 37.

يرون أنه يجب علينا الانتظار حتى تقع، حتى نحكم عليها من الجانب الشرعي، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فكيف نحكم على مجهول لم يره الفقيه ويعاينه عن قرب؟ خاصة فيما يتعلق بالاستنساخ البشري[1].

وبالطبع فإن هذا الرأي المساق لا يمكن قبوله، فلا يمكن الانتظار حتى يتم استنساخ كائن بشري، ويعاينه الفقيه، ومن ثم يدلي بالرأي الشرعي فيه، ففي هذا الوقت، سيكون الاستنساخ البشري قد بات أمرا مستقرا، وشيئا مبهرا للإنسانية، عندما يرون كائنا بشريا يشابه آخر، تم استنساخه. المشكلة هنا أن الرأي الشرعي سيكون غائبا عن ساحة الحوار في العالم الإسلامي من جهة، وعن المشاركة في ساحة النقاش الدولية من الناحية الأخلاقية والقانونية والقيمية، فكيف تغيب الثقافة الإسلامية بكل تاريخها ومكانتها عن موضوع ساخن مثل هذا؟

لذا، في هذه الحالة من المهم تفعيل **الفقه الافتراضي**، الذي يوفر: الأدوات العقلية لتطوير الفقه ونظمه استجابة لتحديات الواقع، كما أنه من أساليب التيسير، وبهما نتجاوز صرامة الحرفية النصية للتعامل مع واقع مرن ومفتوح. والفقه الافتراضي يلتقي مع التنبؤ العلمي، في كونه يبحث في أمور متوقعة ومشكلات قائمة، وهو تبصير بحقائق ممكنة، لذا فإن مجاله هو المستقبل، ولنا في القاعدة الشرعية التي تقول «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» مثال جيد على الفقه الافتراضي لأنها تؤسس لاعتبار «الممكن» واجبا لكونه مقدمة للواجب[2].

إن الفقه الافتراضي يتحرك ضمن قاعدة معالجة أمر «واقع»، أو استعداداً لأمر «متوقع»، وكلاهما قائم وحادث في أبحاث الجينوم. لذا، فإن الفقيه عليه الاستنفار في دائرة هذا الفقه من خلال قاعدتين:

(1) يعود هذا الرأي إلى مفتي مصر الأسبق د. نصر فريد واصل، والذي ذكره في إحدى ندوات دار الإفتاء المصرية. عدد جريدة المسلمون الدولية، رقم (547)، 27 يونيو 1997م، ص7.

(2) الموقف من الفقه الافتراضي: رؤية أصولية، د. محمد كمال الدين إمام، بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد 145 / 146، الثلاثاء, 11 كانون1/ديسمبر 2012م، ص143.

الأولى: افتراض يأتي تطبيقًا لقاعدة «الأمر إذا ضاق اتسع» انطلاقًا من المرونة في تنزيل الحكم على وقائعه وما تقتضيه من توسعة في الشروط بالنظر إلى المآلات.

الثانية: افتراض يأتي تطبيقًا لقاعدة «الأمور بمقاصدها» وفيه تصبح الآثارُ المترتبة على الحكم أكثرَ امتدادًا وأوسعَ نطاقًا.

ولا نقصد بها ما يثمره الافتراض من تنشيط لذهن الفقيه، والخروج به من ضيق حرفية النص إلى مقاصده الأشمل، وغاياته الكبرى[1]، والمتمثلة في مصالح الناس، وحل معاناتهم مع الأمراض، ومواكبة التقدم العلمي في هذا المضمار.

وتكمن المشكلة في أن كثير من الفقهاء والمشرعين القانونين يناقشون قضايا الجينوم على أساس أنه احتمالات وتوقعات مستقبلية، وهم لا يعرفون المستجدات الحادثة كل يوم، لأن غالبية أبحاث الجينوم تتم في دول غير مسلمة، كما لا يتوفر لدينا العالم الشرعي المتعمق والمتابع لأبحاث الجينوم، وقد يكون طبيبا وفقيها في آن، على الأقل سيكون أكثر قدرة على فهم ما يجري من أبحاث ومن ثم يقدمها للفقهاء والقانونيين، ويوضح الصورة لهم بشكل مستمر.

فخطورتها تعود إلى تعلقها بحقوق ومصالح الإنسان كتلك التي تتعلق بكليات الشريعة: النفس والنسل والعقل ومن هنا تأتي أهمية الأبحاث (ضمن الفقه الافتراضي) التي يجب أن تضع الحدود لتطبيق مكتسبات علم الجينوم على البشر دون إخلال بالقواعد الأساسية للشريعة ولا هدر المصالح التي تدور حولها الأحكام الشرعية[2].

وإذا نظرنا لأبحاث الجينوم، سنجد أن فيها جانبين: جانبًا إيجابيًّا وآخر سلبيًّا. أما الجانب الإيجابي فهو الأهداف والغايات السامية التي يسعى إليها هذا العلم كتخليص البشرية من أمراضها الوراثية عن طريق تغيير الشفرات الوراثية وجودة

(1) السابق، ص148.

(2) انظر: الهندسة الوراثية والأخلاق، ناهدة البقصمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1993م، ص181، بتصرف من جانبنا.

الأجنة كذلك التوصل إلى أنواع العلاج لأمراض مستعصية كالسرطان، وغيرها من الخدمات في مجال الزراعة والتغذية والصناعة. أما الجانب السلبي فهو ما يحلم به بعض العلماء كتغيير طبيعة البشر عن طريق تغيير تركيبهم الوراثي، مما يفقد الإنسان صفاته التي تشكل إنسانيته ويلغي حريته وإرادته. أو محاولة البعض الخلط بين الأجناس المختلفة من حيوانات ونباتات بهدف استخدامهم لأغراض متعددة كأن يتم الخلط بين الإنسان والنبات بهدف تخليق كائن يعيش على البناء الضوئي الإنسان الأخضر[1].

فإذا كان القصد هو الجانب الإيجابي فيما يتعلق بالاستبدال والعلاج وإنقاذ البشرية من أمراض وراثية فإنه مما يندرج في التصرفات المشروعة إن لم يكن على سبيل الوجوب فعلى وجه الندب أو الإباحة، لأنه من جنس المأمور به في نصوص الشريعة الداعية إلى التداوي وإزالة الضرر ودرء المفسدة وتحصيل النفع والحرص عليه. ونفس الأمر في التطبيقات الإيجابية التي تهدف إلى تغيير مستوى النبات والحيوان بحيث يستفيد منها الإنسان، وهو أمر يتقبله الشرع ولا يرفضه. ولكن التدخل في سنة من سنن الله لا يمكن أن يوافق عليه أي رجل دين بل وأي مسلم. فهناك حدود وضعها الله للإنسان لا يمكن تجاوزها ولذلك لا يجب أن يأخذه الغرور فيعتقد أنه قادر على التلاعب بالحياة والأحياء، لأنه استطاع تغيير طبيعة النبات والحيوان البيولوجية[2].

وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على جواز تطبيق تكنولوجيا التكاثر على مستوى الكائنات الدقيقة باستخدام خصائص الحامض النووي، بمعاودة الالتحام وذلك في مجالات إنتاج مواد علاجية وفيرة مع الحرص على استعمال خصائص الحامض المذكور في كل ما ينفع الأمة ويدفع عنها الضرر[3].

(1) السابق، ص181، 182.

(2) د. عبد الستار أبو غدة، مؤتمر الإنجاب في ضوء الإسلام المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، وزارة الصحة، تحرير د. أحمد رجائي الجندي، الكويت 3198 ص157، 158

(3) من توصيات لجنة مؤتمر الإنجاب في ضوء الإسلام، ص 350

وهي توصية جامعة مانعة، يمكن البناء عليها في أبحاث الجينوم، فهي تتعاطى بإيجابية مع كل ما يفيد الأمة والناس جميعا. إلا أن المشكلة الأكبر تتمثل في المستجدات في الجينوم، والتي باتت تتلاحق على مدار اليوم الواحد، وتلقي عشرات الأسئلة على العلماء، ناهيك عن القضايا التي تتصل بها، فهناك آلاف الجزئيات والنثريات التي ولجت فيها أبحاث الجينوم، في تطبيقاته المختلفة على الحيوانات والنباتات والإنسان، فلا يمكن حصر القضية في الاستنساخ البشري فقط، فهذا انجرار وراء ما يفجره الإعلام الذي يعتمد على الإثارة. أما الوقائع العلمية ومستجداتها، فهي غير مطروقة إعلاميا، وإن كانت أبحاث الإشكالات الأخلاقية والدينية في الغرب أكثر منها بكثير من الشرق، لأن الفلاسفة وعلماء الدين والقانونيين هناك، في حالة متابعة دائمة لعلوم الجينوم على صعيدين: ما هو قائم بالفعل وما أُنْجِز، وما يتنبأ به العلماء في خططهم البحثية.

الخاتمة:

يمكن أن نخلص في نهاية هذه الدراسة بجملة نتائج وعدد من التوصيات:

-إن النهج الشرعي لمتابعة المستجدات والتنبؤات في علوم الجينوم، لازم ومهم، ولا يصح القول بأن ننتظر حتى تقع، فالأولى المتابعة المستمرة لما يتم إنجازه وتطبيقه، ولما يطرحه العلماء من تنبؤات.

- في جميع الأحوال، على الفقيه أن يكون حاضرا بالنقاش الثري، والطرح المفيد، الذي لابد من ترجمته ونشره في المجلات والدوريات العالمية ذات الشأن، فلا يمكن أن تظل الثقافة الإسلامية ورؤيتها الشرعية غائبة عن خريطة النقاش العالمية.

- فيما يخص التنبؤ العلمي، من المهم استحضار الفقه الافتراضي في ضوء علم المقاصد الشرعية، فالفقه الافتراضي يحل كثيرا من الإشكالات ويجيب عن الأسئلة التي يطرحها العلماء، في خططهم البحثية وتنبؤاتهم، خاصة العلماء المسلمون العاملون في أبحاث الجينوم في الغرب أو الشرق.

- حبذا من وجود عالم الجينوم ذي الخلفية الشرعية المتعمقة، ومعه أيضا عالم الشريعة المتبحر في علوم الجينوم، فنحن في حاجة إليهما، فكلاهما سيكون أكثر وعيا ودراية، وأكثر شرحا وتفسيرا للمستجدات والتنبؤات في علوم الجينوم.

- من المهم أيضا، وجود مجلات عربية مترجمة إلى اللغات العالمية، تتناول بشكل دائم قضايا الجينوم، وتساهم في النقاش العالمي في التنبؤات المتعلقة به، وهذا يعني حضور الثقافة الإسلامية عالميا، ومحليا أيضا.

- من الأفضل تشكيل الفرق البحثية بين علماء الشريعة وعلماء الجينوم، من خلال مؤسسات إسلامية، تعمل بشكل دائم، وتتابع الجديد في ذلك.

المصادر والمراجع

أولًا: الكتب

-الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية، د.إيهاب عبد الرحيم محمد، نشر خاص، د ط، دت.

-الإنسانيون الجدد: العلم عند الحافة، تحرير: جون بروكمان، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م.

- التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، د. عبد الحسن صالح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1981م.

-التنبؤ الوراثي، زولت هارسنياي، ريتشارد هتون، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988م.

-التمييز بين العلم واللاعلم: دراسة في مشكلات المنهج العلمي، د.محمد أحمد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م.

- الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، دار الفكر للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، د ط.

-حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، برتراند رسل، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، 2009م.

-الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2009م.

-الجينوم: السيرة الذاتية للجينوم البشري، مات ريدلي، ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، 2001م.

- رؤى مستقبلية: كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ميتشو كاكو، ترجمة: د. سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م.

-السينما واللاوعي: الخطاب الشعبي للإلحاد، أحمد حسن، منشورات مركز براهين، لندن، ط2، 2016م.

- العصر الجينومي: استراتيجيات المستقبل البشري، د. موسى الخلف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، 2005م.

- العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط11، 1418هـ، 1998م.

-فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة: د. سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.

ثانيا: المجلات والصحف ومواقع الشابكة:

-هل يمكن للعلم أن «يحتال على الموت» بتجميد أجسادنا؟، روز إيفيليث، 1سبتمبر/ أيلول 2014، على موقع BBC عربي.

http://www.bbc.com/arabic/scienceandtech/2014/09/1

- عدد جريدة المسلمون الدولية، رقم (547)، 27 يونيو 1997م.

- الموقف من الفقه الافتراضي: رؤية أصولية، د. محمد كمال الدين إمام، بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد 145 / 146، الثلاثاء, 11 كانون1/ ديسمبر 2012م.

-مؤتمر الإنجاب في ضوء الإسلام المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، وزارة الصحة، تحرير د. أحمد رجائي الجندي، الكويت 1983م.